المصطفي

من أسماء الله الحُسنى المُصطفي ، فهو اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، وهو زائدٌ على الأسماء الحُسنى التي رويت في حديث رسول الله ﷺ ، والتي بلغت في أحاديثه تسْعة وتسْعين .

الاصْطِفاء في اللغة تناوُل صَفْوِ الشيء ، كما أنّ الاخْتِيار تناول خيْرِه ، أنْ تأخذ أصْفى ما في الشيء فهذا اصطِفاء ، وأنْ تأْخذ أَخْيَر ما في الشيء فهذا اخْتِيار ، وصَفْوَة الشيء ما صفا وخلص ، والنبي عليه الصلاة والسلام صفْوَة الله من خلقِه ؛ من الذي اصْطفاه ؟ المصْطفِي الله جل جلاله هو الذي اِصْطفى النبي ﷺ وجعَلَه صفْوة خلْقِه ، وتقول : صَفا الجوّ أي ليس فيه لطْخَة غَيْمٍ ، سماءٌ صافِيَةٌ زرقاء ، واصطفاه أخذَ منه صفْوَه أيْ خِيارَه .

ولو اِصْطَفَيْت الفاكِهة أخَذْت أطْيَبَها وأكْبَرها ، إن كان الحجم فيها له ميزة ، أو أصْغَرَها إن كان الصِّغَر له فيها ميزة ، أو أشدّها زُهُوًّا إن كان اللون أجمل ما فيها ، والصَّفِيّ هو الحبيب المُصافي ، وصافاه مُصافاةً صدَقَه في الإخاء والمودّة ، والعسَل المُصفى كما تعلمون الذي أزيل عنه الشمع والقذى ، واصْطَفَيْتَ كذا على كذا أيْ اخْتَرتَ كذا على كذا ، وهذه بعض معاني الاصْطِفاء في اللغة .

اصْطفاء الله بعض عِباده قد يكون بإيجادِه صافِياً وقد يكون باخْتِياره من بين عِبادِه المُتَفَوِّقين ، قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] .

موضوعنا هذا دقيق دقيق ، لو أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان الصَّفْوة والخِيرة عن غير قصْد من الإنسان ، وعن غير إرادةٍ واخْتِيار ، لما كان لِكلمة الاصْطفاء معنىً ، لكنّ لأن الله خلق الأنفس واحدة بخصائص واحدة ، ومن جِبلَّةٍ واحدة ، ومن فِطرةٍ واحدة ، ولأن الله عز وجل خلق البشر جميعاً من طبيعة واحدة ، وخصائص واحدة ، وانْطلقوا بِحَسَب اخْتِيارهم وأهْدافِهم ، فإن الله تعالى بعد ذلك اِصطفى منهم خِيارَهم قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

إذاً هناك بالاصطِفاء شيء كَسْبي وشيء وَهْبي ، وأوْضح مثَلٍ على ذلك : لوأردنا أن نعَيِّن إنساناً في وظيفة مرموقةٍ جداً ، وهذه الوظيفة تحتاج إلى لغةٍ وإلى قُدْراتٍ وقوة شخصية وإلى ثقافة عامة وإلْمامٍ بالعلوم والحقوق ، وأَجْرَيْنا مُسابقة واشْتَرطْنا فيها إجازة في اللغة الإنجليزية وإجازة في العلوم والحقوق وهَيئات معيَّنة ومَلَكات معيَّنة وخصائص ، فمن كل هذا الحشد نخْتار من بين المئة شخصاً واحداً ، وهذا كله كسْبي كَسبه المتسابِقون ، أما حينما نختار أحدهم ونُعْطيه مُهِمّة ومَرْكَبة وراتِباً ضَخْماً وصلاحِيات كبيرة فهذا وهْبي .

في الاصْطِفاء هناك جانب كسْبي وجانِب وهْبي ، ولو أن الاصْطِفاء كله وهْبي لفَقَد الاصْطِفاء معناه ، فَمَثلاً لو أعْطَيْنا الأسْئِلة لِطالِبٍ ثم طَرَحْنا السؤال على كل الطلاب ، فإذا بِهذا الطالب ينال الدرجات

التامة ثم عِنْدَئذٍ نقول : هذا نصْطَفيه! فهذا الاصْطِفاء لا معنى له ، إذْ ليس هناك تكافؤ فُرَص وليس هناك تساوٍ بين الطلاب ، أما حينما يتساوى الطلاب جميعاً في عدد الأسْئلة ونوعيتها ويفوز أحدهم بِالدرجة الأولى عن جدارةٍ وأهْلِيَّةٍ فعندها نقول : فلان اصْطَفَيْناه لِيُتابِع تعليمه في جامِعات الغرب .

فهذا الاصطِفاء له معنى ، إذاً عندما ينعدم تكافؤ الفُرَص ولم يتحقق التساوي بين الأفراد ، ولم تتوفر خصائص مُشْتَركة فالاصْطِفاء لا معنى له ، أكرر : الاصْطِفاء فيه جانِب كسبي وآخر وهْبي ، فالجانِب الكسبي أنّ الله سبحانه وتعالى عَلِم من بين خلقِه أكثرهم معْرِفةً ، وأكثرهم اسْتِقامةً وتضْحيَةً وإيثاراً ، وأكثرهم قرباً وأكثرهم إقْبالاً فاصْطَفاه وجعله نبياً ؛ لذلك روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« إن الله اختارني واختار لي أصحاباً ، واختار لي منهم أصهاراً وأنصاراً ، فمن حفظني فيهم حفظه الله ، ومن آذاني فيهم آذاه الله » .

الاصْطِفاء فيه جانِب كسبي وآخر وهْبي ، فإذا أَلْغَيْنا الكسبي أبْطَلْنا معنى الِاصْطِفاء ، وإذا أَلْغَيْنا الوَهْبي أبْطَلْنا ميزات الاصْطِفاء يقول الله عز وجل :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

فما معنى هذه الآية ؟ معنى ذلك أنّ الدين صافٍ من كل شائِبة ومن كل ريْبٍ وشكٍّ وتطرّفٍ وغُلُوّ ومن كل بعدٍ عن الحقيقة قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ ، كل من يعْتَقِد أن هذا الدين يحتاج إلى تبديل ، إلى إضافة أو تعديل ، أو حذف أو تغيير ؛ هو إنسان يرد كلام الله عز وجل ؛ إن الله اصْطفى لكم الدين فلا تموتُن إلا وأنتم مسلِمون ، أيْ إن القضايا التي عالجَها الدين قضايا تامّة وطريقة المعالجة طريقة كاملة .

وفي آل عمران قوله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

أيّة قِصةٍ تنال من الأنبياء وتجعلهم كَبَقِيّة البشر ينْحَرِفون ويرْتَكِبون المعاصي والآثام كما ورد في الكتب القديمة المقدّسة التي نُحِلت وأُضيف عليها وحُذِف منها ، فهذه قِصصٌ باطِلة لا تقوم على أساس لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

اخْتارهم على عِلْمٍ ، أيْضاً اصْطفى النبي عليه الصلاة والسلام لِيَكون سيِّد البشر وخاتم الأنبْياء ولِيَكون صَفْوة البشر ، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام حبيب الله وخليل الله وصَفِيُّ الله وخيرة الله من خلقه .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

فأول اصْطِفاءٍ صار لدينا واضِحاً جلياً ، ولكن هناك اصطفاء ثانٍ فما معنى الاصْطِفاء الثاني ؟ إن الله اصْطفاك وطهّرك واصْطفاك على نساء العالمين .

قال بعض المفسِّرين : « **الاصْطِفاء الأول هو اِصْطِفاء القُرْب من الله ، والاصْطِفاء الثاني أن هذه السيِّدة اِخْتَصَّها الله بِأن تُنْجِب ابنها دون زواج** » ، أنى لكِ هذا ؟ قالت : هو مِن عند الله .

وقال تعالى :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

لو أردنا أن نُوَسِّع الدائرة ؛ فأنت حينما تُخْلِص لله عز وجل ، وحينما تطلب العلم حثيثاً ، وحينما تعمل بِما علمت وتتقي الشبهات وتنطلِق إلى الله بِهِمَّةٍ عالِيَة ، فلعلّ الله يصطفيك ويسمح لك أن تُعَرِّف به وتدعو إليه ، وهذا شرفٌ عظيم ، فالإنسان الصادِق إذا دعا إلى الله لا يرى إلا أنّ الله تعالى تفضّل عليه وسَمَح له أن يَدْعُوَ إلى الله ، وأن يتحدّث عن الله وإلا كان في وضْعٍ آخر .

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

هذه آية دقيقة في مفهومها ودلالاتها جداً ، أيْ أنّ مهمَّة العبد تنتهي حينما يُطيع الله عز وجل ثم يتلقى الخير بالشكر والامْتِنان ؛ تنتهي مهمَّتُك عند الطاعة والشكر وما سِوى ذلك فهو من شأن الله لا من شأنك .

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

طبِّقْ ما أمَرْتُك به ، ويُؤَيِّد هذا المعنى قولُه تعالى :

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٦] .

فالإنسان أحْياناً يحْمِل هموم الأرض ، وأحْياناً يتمَزّق ألماً وحسرة لما يصيب المسلمين مثلاً ، ولكن لو عرف أنّه ليس مُكَلَّفاً إلا أن يُطيع الله عز وجل وأن يشكُرَه لَحُلَّت مُشْكِلاته ؛ أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج : ٢٠] .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وقد يقول أحدكم : ما علاقتنا نحن بهذا البحث ، إذْ الاصْطِفاء

للأنبياء ونحن لسْنا أَنْبياء ولا صِدّيقين ؟ فاسْتَمِع وأَبْشِر بقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٥] .

لا تجد إنساناً دعا إلى الله إلا وسَمَح الله له ؛ فإن كانت دَعْوَتُه صادِقة يُوَفِّقُه ويصرف قلوب الناس إليه ، ومن ثم تهْفو إليه القلوب وتسْتَفيد منه ، وتنْعَقِد صِلَتُها بالله عن طريق تَوْجيهِهِ ، فهذا نَوْعٌ من الاصْطِفاء ، قال تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾ [النور : ٣٦] .

أيْ أذِن الله تعالى أنْ تُرْفَع وأذِن لِمن فيها أن يذكروا اسمه ، دائماً الأشياء التي تخصّ الأنبياء يُمكن أن تُوَسَّع الدائرة لتشمل كل صادِقٍ ليعمل مثل عملهم ، ولعل الله سبحانه وتعالى يُطْلِق لِسانك ويُلْهِمك الصواب والكلام السديد والحِكْمَة وقَلْباً مُتَأَجِّجاً بالمشاعر الصادقة وتهْفو إليه القلوب ، كل هذا نوعٌ من الاصْطِفاء ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

كل تلك الآيات فِعْلها بصيغة الماضي إلا هذه الآية الله (يصطفي)

فَفِعْلها بصيغة الحاضِر ، وهو فعلٌ مضارع يدل على الاستِمرار ، فالله دائِماً يصطفي ، فإذا كنت من عباد الله الذين اصْطفاهم الله عز وجل ، وسَمَح لهم أن يَنْطِقوا باسْمِه ، وأن ينْقُلوا للناس الحقائق ، وأن يكونوا دعاة هداية لا دعاة ضلالة ، ومفاتيح خير لا مفاتيح شر ، فهذا من أعظم العطاءات .

سمعْت عن الذين اخْتَرعوا برامِج الحاسوب وتَفَوَّقوا جداً في مجالها ، كان أحدهم شاباً في مقتبل العمر يمْلِك ما يقارب التسعين مليار دولارٍ ، أما حينما يصْطفيك الله عز وجل لِتَنْطِق بالحق ولِيَكون عمَلُك في خِدْمَة الخلق ، فإن هذا الاصطفاء هو العطاء الكبير الذي يربو على كل المليارات قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح : ١ـ ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١ـ١١] .

هذا اِصْطِفاء ، وقال تعالى :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] .

وقال تعالى :

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

ولم يقل يا محمد! بل خاطبه وناداه ياأيها الرسول! كل هذا اصْطِفاء ، ولقد أُسْرِيَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدِس وعُرِج به إلى السماء وعَلِم وهو في السماء أنه سيّد الخلق وحبيب الحق ، هذا كله من الاصْطِفاء ، بل قل : غاية الاصطفاء .

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً ، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ** » [رواه مسلم] .

أما البِشارة ، أَلَيْس بعد النبي ﷺ علماء أجِلاء ، أليس هناك دعاة مُخْلِصون وفقهاء ومُحَدِّثون ، أَلَيْسَ هناك من دعَوا إلى الله ، كل هؤلاء بالمعنى الواسع اِصْطَفاهم الله وأجْرى على أيْديهم الخير وأَنْطَق لِسانهم بالحق ، وجعل قلوب الناس تهْفو إليهم ؛ هذا نوْعٌ من الاصْطِفاء .

لعلّ من أعظم طموحات المؤمن أن يَصْطَفِيَهُ الله عز وجل لِيَكون داعِيَةً إليه ؛ يا رب! لقد شَرَّفْتني بِمَعْرِفَتِك والدعْوَة إليك ، فإن علِمْتَ صِدْق نِيَّتي فاحْفظْها لي واحْفَظْني لها ، وإن علِمْتَ خِلاف ذلك فعالِجْني قبل أن أموت ، فَعَلى الإنْسان أن يطْمَح ؛ ما هو دوْرُكَ في الحياة ؟ هل هو الأكل والشرب والنوم والراحة واللهوُ واللَّعِب ؟ أم هو معْرِفة الله ؟ فلنُشَمِّرْ من أجل أن نُطيعَهُ ونتقرَّب إليه ؛ هذه بِشارة :

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ .

هؤلاء الذين عكفوا على العِلْم وتَرَكوا مؤَلَّفاتٍ قيِّمة تجدها في كل

بيْتٍ ، الإمام النووي رحمه الله تعالى ألَّفَ كِتاباً بِالفِقْه يُعَدُّ فريداً في بابه وهو المجموع وألّف مُغْني المُحْتاج وألَّفَ كِتاب الأذْكار ورِياضِ الصالحين ، وهذا الإمام الشافِعي رضي الله عنه أوَّل من ألَّف في أصول الفِقْهِ وله كِتاب الأم وهو صاحب المذهب الشافِعي الذي يدين اللهَ به ملايين المسلمين اليوم في أصقاع الأرض ، فهؤلاء الذين اصْطفاهم الله ومكَّنَهم من العِلم وجعَلَ لهم بَصَماتٍ واضِحَةٍ في الحياة ، فهؤلاء أيْضاً بِالمعنى المُوَسَّع ممن اصْطفاهم الله عز وجل .

إذا كنت ممن اِصْطفاه الله عز وجل فلَقَد علِم فيك الإخلاص والصِّدق والحب والطاعة والوَرَع فكُنت ممن اِصْطفاهم الله عز وجل ، ماذا ينتظِرك في الدنيا والآخرة ؟ قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٥٩] .

فإذا كنت ممن اصْطفاه الله عز وجل فأنت في سلامٍ ؛ في سلامٍ مع نفْسِك ، وفي سلامٍ مع مَن هم حوْلَك ، وفي سلامٍ مع ربك ، وحياتك سلامٌ ، وتنْتَقِل بعْدها إلى دار السلام ، وتَتَّصِل نِعَمُ الدنيا بِنِعَمِ الآخرة .

ومِن تَكْرِمَة الله للنبي عليه الصلاة والسلام أنّ الله اصْطفاه واصْطفى له أصْحابَه ، فإذا كنت تعيش بِبَلَدٍ وحوْلَك مؤمنون أطْهار طيِّبون وأتْقياء مخلِصون ومُحِبون ، فهذه حياةٌ مُتَمَيِّزَة وهذه الحياة قَدَّرها الله لك ، وليس هناك إنسان أسْعَد من مَنْ يعيش مع أناس يتفاهمون فيما بينهم تحدوهم في علاقاتهم مرضاة الله . ومع من يكون على شاكِلَتِه ومع الذي يُقَدِّر ما يُقَدِّر ويُبْغِض ما يُبْغِض ، لا تُصاحِب من لا يُنْهِضك حاله ، ولا يدُلُّك على الله مقالُهُ ، ولا تُصاحِب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له .

فمِن نِعَم الله الكُبْرى على المؤمن أنَّه يعيش بين المؤمنين ؛ هو طاهِرٌ بين الأطهار وهو صادِق بين الصادِقين وهو مُحِبٌّ لله ورسوله ﷺ وهو بين المُحِبين ، فأَجْمَل ما في الحياة أن تعيش مع إنْسانٍ هو على شاكِلَتِك يفهمك وتفهمه ، هذه هي الحياة الحقيقية ، لذلك حينما اخْتار النبي عليه الصلاة والسلام سيِّدنا الصِديق لِصُحْبَتِه في الهِجْرة بَكى من شِدَّة الفَرَح ، قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وإذا كانت مودَّتُك وحُبُّك وطاعَتُك لله عز وجل فهذا خيرٌ لك ، أمّا أن تكون مودتك لإنسانٍ لئيم قويٍّ لا يَعْرِف حجْم تضْحِيَتِك من أجْلِه فالفرْقُ كبير ؛ ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ؟ هذا اسْتِفهامُ إنْكارٍ ، وليْسَ هناك شيءٌ يجْمع بين متضادين ، قال تعالى :

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص : ٦١] .

وقال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ٩] .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر : ٣٢] .

فإذا أكرمك الله بالكِتاب تِلاوةً وفَهْماً وتطبيقاً ؛ فقد أوتيت خيراً

كثيراً ، ومن أوتِيَ القرآن وظن أن أحداً أوتِيَ خيْراً منه فقد حقَّر ما عظَّمَهُ الله فالقرآن غِنىً لا فقْر بعْده .

من العِباد حِيال الكِتاب مَن هو ظالِمٌ لِنَفْسه ، ومنهم مَن هو مقْتَصِد في فِعْل الخيرات ، ومنهم مَن هو سابِقٌ بِالخيرات بِإذْن الله ، أتُلاحِظون الاصْطِفاء ؟

مثَلاً لدَيْنا مئة طالِب على وشك أن يتخرجوا من الجامعة ، ونريد أن نصطفي واحداً منهم ليكون في منْصِبٍ رفيع لِيَكون عميد كلِيَّة مثلاً ، أو أُسْتاذاً في الجامِعة ، أو رئيس المجْمَع العلمي العربي ، فَحِينما يُصْطفى من بين المُتَفَوِّقين فهذه هي الجِهَة الكسْبِيَة ، ويُمْنَح إخْتِصاصات ومُكافآت وميزات وهذه الجهة الوَهْبِيَة ، وقد ذكرت وأعود وأذكر : ففي الاصْطِفاء جانِبٌ كسْبي وإلا لا معْنى للِاصْطِفاء ، وفي الاصْطِفاء جانِب وهْبي وإلا لا ميزَة له عِنْدئذٍ .

وفي القرآن الكريم يتحدّث الله عن الأنبياء الكِرام في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٧] .

الأنبياء مُصْطَفَوْن فَهُم قِمَمٌ في الكمال ونُخْبَةُ البشَرِيَّة وأعلام المجْتَمَع البشري وملوك البشر هؤلاء الصحابة الكِرام ، إنهم ملوك المسلمين بِالمعنى الروحي ، والأنبياء والمُرْسلون صَفْوة الله من خَلْقِه ، قال تعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [ص : ٤٥] .

رُؤْيَتُهم عميقة وأَعْمالُهم طيِّبة ؛ واذْكر عِبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيْدي والأبْصار ، فهم بِقَدْر ما هم مُتَفَوِّقون في رؤْيَتِهم بِقَدْر ما هم طيِّبون في أعمالهم .

عُلُوّ الهمّة من الإيمان ، حينما يسْمح الله لك أنْ يصْطَفيك أو أن يُقَرِّبك أو أنْ يُلْهمك أو أن يجْعَلَك تنْطِق بالحق أو أن يجعل هداية الناس على يَدَيْك ، أو أن تهْفو قلوب المؤمنين إليك فهذا نوْعٌ من الإصْطِفاء ، وما عِند الله لا يُنال بِمَعْصِيَة الله ، أَلا إنّ سِلْعة الله غالية ، أَلا إن سلعة الله الجنة ، وينبغي أن تتيقنوا أيها المؤمنون من أنه لا بد من الابْتِلاء ، والإنْسان كما تعْلمون يمُر بِمراحِل ثلاث :

ـ مرحَلَة يؤدّب .

ـ مرحلة يُبْتلى .

ـ مرحلة يُكَرَّم .

ففي مرحلةٍ يؤدّب ، وفي مرْحلةٍ يُبْتلى ، وفي مرْحلةٍ يُكرَّم ، وهذه المراحل قد تتداخل وقد تتمايَز ، لكن لا بد من التأديب ولا بد من الابْتِلاء ولا بد من الإكرام والعطاء ، لأنّ هذه سُنّة الله في خلْقِه وقد ورد في تفسير قوْله تعالى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

جنّة في الدنيا وجنّة في الآخرة .

وأما التطبيق العملي فما هو موْقِف المؤمن من هذا الاسم العظيم المُصْطَفي ؟ فَمَوْقِف المؤمن أنه يطْمَح في اِصْطِفاء الله له لِخِدْمة خلْقِه ، ومن هنا قال الله عز وجل :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

حينما اصْطفى الله عبْده المؤمن ، فهذا المؤمن باع نفْسَه لله ، أريد أن أُوَسِّع الموضوع ؛ الأنبياء مُصْطَفَوْن والرسل مُصْطَفَوْن وهم قِمَم البشر وصفْوة البشر ، ولكن المؤمنين لهم قَدْرٌ يسير على قدْر إخلاصِهم وعلى قدْرِ طاعَتِهم لله ، فالله يُكَلِّف الإنسان أعْمالاً يُجْريها على يَدَيْهِ ويَرْفَعُهُ بِها ، فهذا نوْعٌ من الاصْطِفاء .

أعرِف شخْصاً قرأ القرآن في الخامِسَة والخمْسين من عمُره وحَفِظَه وكان طُموحُهُ أن يكون إماماً في مَسْجِد ، وسُبْحان الله فلما قرأ القرآن وحَفِظه وعُيِّن إماماً لِمَسْجِدٍ جيِّد موقعه ورواده كثيرون ، صار يُصلي بالمصلين الصلوات الخمْس ، ثم أكرمه الله بأن صار يلقي بعد الصلوات كلِمَةً على الناس تعظهم ، هذا طُموحُهُ فاصْطَفاه الله عز وجل ، فالمعايير دقيقة عند الله تعالى وبِحَسَبِ صِدْق الإنسان وطاعَتِه لله يصْطَفيه ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة : ٢٤] .

فالصَّبر إذاً طريق الاصْطِفاء هذا أوّلاً ، وقوله تعالى :

﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

فَتَطْبيق الأمر والطاعة مع الإخلاص ؛ سبيلٌ إلى الاصْطِفاء هذا ثانياً ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ [يس : ٢٠ـ ٢١] .

فالترفُّع عن حُطام الدنيا وعن مَتاعِها ومالِها وعن مُكْتَسَباتِها سبيلٌ إلى الاِصْطِفاء ؛ هذا ثالثاً ، وقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

فطلبُ العِلم طريق إلى الاصْطِفاء ، تَصَوَّر إنساناً درس الابْتِدائي والإعدادي والثانوي ونال درجاتٍ عاليَة جداً ثم دخل كلِّيَّة الطِّب وتخرَّجَ بها ، ثم تابَع دِراسَتَهُ العُلْيا ، وعاد بِأكبر شهادة في العالم ؛ ماذا ينْبَغي أن يفْعَل هذا الإنسان بعْد أنْ تخرَّجَ ونال الدرجة العُلْيا ؟ ينْبَغي أن يُطَبِّب الناس ويفْتَح عِيادة وإلا فلا معْنى لهذه الدِّراسة .

دقِّق النظر وتأمل : أنت حينما تطلب العلم فإنك تُؤَهِّل نفْسَك لِماذا ؟ للدعْوَة إلى الله ومن الذي سوْف يسْمَح لك أن تَدْعُوَ إلَيْه ؟ هو الله ، فالله عز وجل بِطريقةٍ أو بأُخْرى ، على نحوٍ معروفٍ أو غيرِ معْروف يُيَسِّر لك طريق الدعوة إليه لأنّك تعلَّمْت العِلم فَصِرْتَ مؤَهَّلاً أن تدْعُوَ إلى الله ، فكل إنسان يطلب العلم بِإخلاص ويسْعى لِطاعته تعالى بِإخلاص ويحْرِص على رِضْوان الله وعلى القُرْبِ منه يصْطَفيه الله عز وجل ، ويُجْري على يَدَيْه الخير بل بِالتعْبير الشائِع : « **الله جبار الخواطِر** » .

عندما يتعلم الإنسان يتعلَّم عِلْماً صحيحاً ويلْزَم مجالِس العِلْم ويجْلِس على رُكْبَتَيْه ويطْلُب العلم فلا بد من أن يصْطَفيه الله عز وجل بِالمعنى الواسِع فَيَجْعَلُه بِطريقة ما باباً للخير ، لذلك روي أن من أدْعِيَة النبي عليه الصلاة والسلام : « **اللهم! ارْزُقني طيِّباً ، واسْتَعْمِلني صالِحاً** » .

حدِّثوا عن بعض العلماء بأنه : اشْترى كَفَنَهُ والصابون الذي ينْبَغي أن يُغسَّل به من بلَدٍ ليس فيه مالٌ مُغْتَصَبٌ من شِدَّة الوَرَع .

فالإنسان عليه أن يدْعو : « **اللهم! ارْزُقني طيِّباً ، واسْتَعْمِلني صالِحاً** » ما معنى : واسْتَعْمِلني صالِحاً ؟ أيْ : الله يصْطَفيك لِعَمَلٍ

صالح ، وما معنى الحِكْمَة القائلة : إذا أردْت أن تعرف مقامك فانْظر فيمَ اسْتَعْمَلك ؟ يعني أنّ الله اصْطَفاك ، قد تجد شخْصاً آتاه الله حِكْمَة يتصَرَّف في ضوئها ، وفهْماً دقيقاً وخِبْرات مُعَيَّنَة وعِلْماً ودعْوَةً وجاهاً وقوةً وطلاقة ، فكل إنسان يُهَيِّىء نفسه لِفِعْلِ الخير ، فالله جل جلاله لابد من أن يجْبر كسْرَه ويُجْري على يَدَيْهِ فِعْل الخير ، قد تقول : أنا من أنا حتى أُصْطَفى ؟ أنت إنسان ومُؤَهَّل أن تكون من المصْطَفين ، هذا بِالمعنى الواسع ؛ إن قلت بالمعنى الواسع هذا للمؤمنين ، وإن قلت بالمعنى الضَيِّق فهم الأنبياء والمُرْسلون لأن الله يصْطَفي من الملائكة رُسُلاً ومن الناس ، فَلِمَ يطلق الله تعالى لِسانك ويجْعَل قلوب الناس تهفو إليك ؟ فهذا هو معنى الِاصْطِفاء وهو المعنى المُوسَّع ، فإذا مكَّنَكَ الله من بِناء مسْجِد فهذا نوع من الاصطفاء ، وأن تُطْعِم الناس من مالك الحلال فهذا نوع من الاصطفاء كذلك ، وإذا سَمَح لك أن تُعْطي وقدَّر لك مَن يأخذ وسَمَح لك ، فهذا كذلك نوع من الاصطفاء ، تكون في بيتٍ من بيوت الله وليس في ملهى من ملاهي الشياطين ، فهذا تكريم واصطفاء .

أنا لا أنْسى أني كنت مَدْعُواً ذات مرة لافْتِتاح مسْجِد ، وجلس بِجانبي مدير الأوقاف الذي سَيَفْتَتِح هذا المسجِد ، فقلت له أُشْكُر الله عز وجل على أنه قد قدَّر على يدَيْك أن تفْتَتِح هذا المسْجد ، إذْ هناك من يفْتَتِح الملاهي ودور القِمار ، قد تسعى وتهنأ فيكون عملُك مع العلماء ، فهناك من يعمل مع الساقطين ومع طبقاتٍ أخرى من الناس لهم انحرافاتهم فيشقى بهم ومعهم ، وهناك من يرْعى شؤون المساجد فليحمد الله ، وهناك من يرعى شؤون الملاهي ، وآخر يُفَكِّر كيف يدْعو إلى الله ، وذاك يُفَكِّر كيف يدعو إلى الشيطان وإلى المعاصي

والآثام ، فحين يُجَنِّد الإنسان نفسه لِطاعة الله يصْطَفيه الله تعالى ، فالله إذا أعْطى أدْهَش .

هل تجد إنساناً في الأرض أعَزَّه الله كالنبي عليه الصلاة والسلام ؟ شيءٌ غير معْقول أربعة ملايين إنسان يذهبون إلى الحج كل عامٍ ويزورون النبي عليه الصلاة والسلام ، ويَقِفون أمام مقامِه يبْكون ولم يلْتَقوا به ولا سمِعوا من كلامه مباشرة ولا نالوا من ماله ، وبينه وبينهم آلاف الكيلومترات ، فما الذي هداهم إلى أن يأْتوا إلى مقامِه الشريف ؟

وطَلب العِلم وتبليغه طريق الاصْطِفاء ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

فعليك ألا تخشى إلا الله ، فهذا طريق الاصْطِفاء ؛ فلا أريد أن يكون كلامي هذا نظرياً وإنما أريده عملِياً ؛ كُن طموحاً ، لقد قلت مرة كلِمة مفادها : أحْياناً يتوَهَّم الإنسان أنّ الدعاة هم خطَباء المساجد دون غيرهم ! لا . . . أنت لدَيْك أقْرِباء وأصْدِقاء وجيران وزملاء وأولاد وإخوة وأخوات . . . ألا تسْتطيع أنْ تنْصَحهم وأن تجْلِس معهم وأن تُعَلِّمهم ، وبِهَدِيَّةٍ إليهم تكسب ودهم وقلوبهم وإصغاءهم لحديثك ، ولك أن تكون من المُصْطَفَيْن الأخْيار إذا كنت مُخْلِصاً لله الكبير ؛ إذاً طريق الاصْطِفاء يقوم أولاً على طاعة الله ثم على طلب وصدق نية وإخْلاص ، ويحتاج هذا إلى حُبٍّ وإلى شجاعةٍ وإلى جُرْأة فلَعَلَّ الله تعالى يصْطَفيك قال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم : ٣٥] .

إنسان همُّه الوحيد أن يُرَسِّخ الحق في المجْتَمع ، ويُدْخل السعادة على المؤمنين ، وآخر هدفه أن يبْني مجْدَه على أنقاض الآخرين وغِناه على فقْرِهم وحياته على موْتِهم وأَمْنَه على خوْفِهم ، شتانَ بين هذا وهؤلاء ! فلِذلك ضَعْ نفْسَك موْضِعاً يصْطفيك الله . وليس الوليُّ الذي يطير في الهواء ، ولا الذي يمْشي على وَجْه الماء ، ولكن الوليَّ كل الوليِّ أن يجدك الله حيث أمرك ويفْقِدُك حيث نهاك ، فإذا كنت في مَجْلِسٍ وكانت هناك غيبة سكتّ أو قُمْت وفارقت أهل المجلس ، فأنت الآن تَتَوَسَّل أن يصْطَفِيَك الله عز وجل والله تعالى من أسْمائه المُصْطَفِي ، فهو إذاً يصْطَفي ، وإذا اِصْطَفى مؤمناً فهو في سلامٍ معه ، والمؤمن في سلام إذا كان الله عز وجل قد اصْطفاه لكن الله قال :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت : ٢] .

لابد من الابْتِلاء .

اسْم المصْطَفي من أسماء الله الحُسنى ، وهذا الاسْم مُرْتَبِط أشدّ الارْتِباط بِالمؤمنين ، وكلما جهِدوا بِطاعَتِه والفَوْز بِرِضاه اصْطفاهم وكرَّمهم وأجْرى على أيديهم الخير ، والغِنى الحقيقي أن يجْعَلك الله مِفْتاحاً للخير مِغْلاقاً للشرِّ .

روي عن النبي ﷺ أنه قال :

إن الله عز وجل قال : **أنا خلقت الخير والشر فطوبى لمن قدرت على يده الخير وويل لمن قدرت على يده الشر .**

* * *